تفكيك الأزمة في السرد العربي

مقاربات نقدية في جدليات القيم والهوية والسلطة

Kitabın Adı : Tefkiku'l-ezme fi's-serdi'l-'arabi mukarabat nakdiyye fi cedeliyyati'l-kıyem ve'l-hüviyye ve's-sulta

Yazar : Soaad SHOLAK

1. Baskı : Aralık 2025 ANKARA

Yayın Koordinatörü : Ceyda ŞEREFLİOĞLU
Yayın Yönetmeni : Selva ALİM
ISBN : 978-625-8728-82-8
Yayın No : 3093

© Soaad SHOLAK

Tüm hakları yazarına aittir. Yazarın izni alınmadan kitabın tümünün veya bir kısmının elektronik, mekanik ya da fotokopi yoluyla basımı, çoğaltılması yapılamaz. Yalnızca kaynak gösterilerek kullanılabilir.

SONÇAĞ AKADEMİ

İstanbul Cad. İstanbul Çarşısı No.: 48/49 İskitler 06070 ANKARA

T / (312) 341 36 67 - GSM / (533) 093 78 64

www.soncagyayincilik.com.tr

soncagyayincilik@gmail.com

Yayıncı Sertifika Numarası: 47865

BASKI VE CİLT MERKEZİ

UZUN DİJİTAL MATBAA, SONÇAĞ YAYINCILIK MATBAACILIK TESCİLLİ MARKASIDIR.

İstanbul Cad. İstanbul Çarşısı No.: 48/48 İskitler 06070 ANKARA

T / (312) 341 36 67 - GSM / (533) 063 64 04

www.uzundijital.com

uzun@uzundijital.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقاربة الأولى

التشكيل اللغوي للعدميّة وأزمة التلقي الأخلاقي
دراسة في المعجم السردي والأثر القيمي لرواية «بريد الليل» لهدى بركات

سعاد شولاق*

* أستاذ مساعد اللغة العربية وآدابها بكلية الإلهيات جامعة قسطمونى - تركيا
https://orcid.org/ 0000-0003-1617-3013

تقديم:

لم تعد الدراسات النقدية المعاصرة تنظر إلى اللغة بوصفها أداة محايدة أو «وعاءً شفافًا» لنقل الواقع، بل بوصفها نظامًا فاعلًا يمتلك سلطة حقيقية في بناء هذا الواقع وتشكيله، وهو ما يتجلى في التمييز السردي البنيوي بين «القصة» (Story) و«الخطاب» (Discourse) الذي يقدمه (جينيت، ١٩٧٢/١٩٩٧، ص ص ٤٥-٥٠)، وتتجلى هذه الوظيفة التأسيسية بشكل خاص في «سرديات الأزمات» الحديثة، لا سيما تلك التي تتناول تجارب المنفى والشتات والصدمة، حيث تنهار المرجعيات الخارجية المستقرة، وتصبح اللغة هي الفضاء الذي تُثبت فيه الذات وجودها المتشظي، غير أن هذه السلطة اللغوية ليست محايدة؛ فالطريقة التي يشكل بها النص عالمه تحمل بالضرورة موقفًا قيميًا وأخلاقيًا.

وفي قلب هذا الحوار النقدي، تبرز رواية «بريد الليل» للروائية اللبنانية هدى بركات (٢٠١٧) كعمل سردي مثير للجدل، فمن خلال بنيتها الرسائلية، تلغي الرواية أي واقع خارج نصوص الرسائل نفسها؛ فالشخصيات لا توجد إلا بقدر ما تكتب، وهوياتها لا تتشكل إلا من خلال الكلمات التي تختارها لتروي بها ضياعها وانهيارها الأخلاقي، هنا، نجد أنفسنا أمام نص يطرح توترًا حقيقيًا بين حرية الإبداع الفني والمسئولية الأخلاقية.

لقد حظيت أعمال هدى بركات، و«بريد الليل» تحديدًا، باهتمام نقدي واسع، ركزت معظم الدراسات السابقة على مقاربات تيماتية ونفسية، حيث تم تحليل الرواية كتمثيل لتشظي الهوية في سياق ما بعد الحرب الأهلية اللبنانية، أو كدراسة عميقة لتجربة المنفى والاغتراب (مثلًا، ياغي، ٢٠١٨)، كما تناول نقاد آخرون الجوانب البنيوية المتعلقة بالشكل الرسائلي وتعدد الأصوات (مثلًا، شرف الدين، ٢٠١٩)، وعلى الرغم من أهمية هذه المقاربات؛ فإنها غالبًا ما تعاملت مع اللغة كأداة لوصف الأزمة النفسية أو الاجتماعية، ولم تفحص بشكل منهجي كيف أن اللغة نفسها هي التي تؤسس للمنظومة القيمية للنص، علاوة على ذلك، لم يتم استكشاف الأثر الأخلاقي العميق لهذا البناء اللغوي على عملية التلقي بشكل كافٍ.

من هنا، تنبع أهمية هذه الدراسة التي تسعى إلى سد هذه الفجوة البحثية عبر تقديم مقاربة تجمع بين التحليل اللغوي الدقيق والنقد الأخلاقي، تتبنى هذه الدراسة مدخلًا

نقديًا لا يسأل: هل هذا العمل جيد أم سيء؟ بل يطرح السؤال الجوهري في النقد الأخلاقي: ما هو نوع الإنسان الذي يطلب منا هذا النص أن نكونه أثناء القراءة؟ وما هي القيم التي يبنيها أو يفككها؟ (انظر Booth, 1988, pp. 10, 14).

تطرح هذه الدراسة إذن فرضية محورية مزدوجة مفادها أن «المعجم السردي» في الرواية ليس مجرد وسيلة للتعبير عن الذات المأزومة، بل هو الآلية الفنية الحصرية التي يتم من خلالها «التشكيل اللغوي» لمنظومة قيمية عدمية متكاملة، وتجادل الدراسة بأن الاستراتيجيات السردية والمعجمية للرواية تعمل بشكل منهجي على توريط القارئ في هذه المنظومة، مما يؤدي إلى حالة من «العجز الأخلاقي» في التلقي؛ ولإثبات هذه الفرضية، ستعتمد الدراسة على منهج مزدوج يجمع بين (النقد الأدبي الأخلاقي) كإطار تأويلي عام، و(تحليل الحقول الدلالية) كأداة إجرائية دقيقة، ينقسم البحث بعد هذا المدخل إلى ثلاثة أقسام رئيسة تليها خاتمة.

١. الإطار النظري والمنهجي: نحو نقد لغوي-أخلاقي:

لتفكيك الآليات التي يتحقق بها «التشكيل اللغوي للعدمية» في رواية «بريد الليل» وتحليل أثرها القيمي، تستند هذه الدراسة إلى إطار منهجي متكامل يقع في نقطة تقاطع بين النقد الأدبي الأخلاقي والدراسات اللسانية الأسلوبية، مستفيدة من التحولات التي أحدثها «المنعطف اللغوي» في العلوم الإنسانية، والذي أكد دور اللغة المحوري في بناء المعنى والواقع (انظر Rorty, 1992/1967, p. 9).

١-١ النقد الأدبي الأخلاقي وحدود التأويل:

يمثل (النقد الأدبي الأخلاقي) الإطار التأويلي العام لهذه الدراسة، فمن المهم تأكيد أن هذا المنهج لا يُعنى بفرض رقابة خارجية أو إصدار أحكام قيمية معيارية على الشخصيات أو الكاتب، بل هو منهج يركز على «التجربة الأخلاقية» التي يخوضها القارئ داخل عالم النص؛ فكما ترى هانا ميريتويا Hanna Meretoja فإن التأويلية السردية تؤكد أن التأويل لا يقتصر فقط على تعاملنا مع النصوص؛ بل إنه يحدد سمات كينونتنا بأكملها في العالم ويشكل البنية الأساسية للتجربة، والسرد، والذاكرة، ومن ثم تؤكد أن السرديات هي ممارسات تفسيرية نفهم من خلالها حياتنا، وهذه

الممارسات الخاصة بصناعة المعنى مشحونة أخلاقيًا، ومن ثم فهي ليست محايدة أخلاقيًا أبدًا، ويمكن لرواية القصص أن تعمل كتحريض على أن نكون ونتصرف بشكل مختلف (Meretoja, 2018, p. 3)، وهذا ما أشار إليه من قبلُ نقاد آخرون مثل وين بوث حينما ذكر أن كل نص سردي يمتلك «بلاغة ضمنية» توجه استجاباتنا القيمية، وأننا كقراء ندخل في «صداقة» أو «علاقة» مع النص، وهو ما يصفه بالرفقة التي نحتفظ بها (انظر Booth, 1988, pp. 10, 169).

والسؤال المنهجي هنا هو: ما طبيعة هذه العلاقة التي يفرضها علينا نص مثل «بريد الليل»؟ يتقاطع هذا الطرح مع ما يسميه جيمس فيلان «النقد الأخلاقي البلاغي»، الذي يركز على الديناميكية التفاعلية بين النص والقارئ، وكيف يشكل النص استجاباتنا العاطفية والمعرفية والأخلاقية (انظر Phelan, 2005, pp. 9-10).

إن الموقف المنهجي لهذه الدراسة هو تحليل «المنظومة القيمية الداخلية» التي يقدمها النص نفسه، وكيف أن استراتيجياته الفنية قد تكون موجهة لتشكيل «قارئ عدمي» أو إحداث «عجز أخلاقي».

١-٢ المعجم السردي والحقول الدلالية كأدوات للتشكيل:

للكشف عن «المنظومة القيمية الداخلية» للنص، تعتمد الدراسة على أدوات تحليل لغوية دقيقة تستند إلى مبادئ اللسانيات البنيوية، التي تؤكد أن المعنى أو القيمة اللغوية لا يكمنا في العناصر المفردة، بل في شبكة العلاقات التي تربط بينها (انظر دي سوسير، ١٩١٦/١٩٨٥، ص ص. ١٣٣ -١٣٥).

١-٢-٣ المعجم السردي (Narrative Lexicon): لا يُعرَّف في هذا البحث على أنه مجرد حصر كمي للكلمات، بل بوصفه نظامًا من الاختيارات اللفظية الموجهة والمكررة التي تفرض على القارئ رؤية محددة للعالم، فلا يكون في النص السردي -كما يرى ميخائيل بختين- كلمة أو شكل لغوي محايد، «فاللغة كلها تبدو متنازعة، مخترقة بالمقاصد ومشبعة بالنبرات، الكلمات كلها تفوح منها رائحة المهنة، الجنس أو الاتجاه الأدبي، الحزب، عمل معين، إنسان معين، جيل معين، عمر معين، يوم معين، ساعة معينة، كل كلمة تفوح منها رائحة السياق والسياقات التي عاشت فيها هذه الكلمة حياتها المتوترة اجتماعيًا؛ كل الكلمات والأشكال مأهولة بالمقاصد؛ في

الكلمة لا مفر من الفروق السياقية المتصلة بالأجناس والاتجاهات والأفراد» (بختين، ١٩٧٥/١٩٨٧، ص ٥٢)، وبناء على ذلك فإن انتقاء كلمات محددة وتكرارها بكثافة هو ما يبني «المنطق الداخلي» و«الأفق الأخلاقي» لعالم الرواية.

ب- تحليل الحقول الدلالية: لكشف هذا المنطق الداخلي، تعتمد الدراسة على نظرية الحقول الدلالية التي أسسها يوست تريز (Trier, 1931)، والتي ترى أن المفردات تكتسب معناها من خلال انتمائها إلى «حقل» أو «فسيفساء» من الكلمات المترابطة التي تغطي مجالًا مفاهيميًّا معينًا، ولقد تم اختيار هذا المنهج تحديدًا لأنه الأنسب لتحقيق أهداف النقد الأخلاقي المتمثلة في الكشف عن رؤية العالم الكامنة في النص، فخلافًا للمناهج التي تركز على البنى النحوية أو تحليل الخطاب النقدي الذي يركز على السلطة الخارجية؛ فإن تحليل الحقول الدلالية يركز على «المعجم» كبنية قيمية داخلية، وكما يوضح ستيفن أولمان وجون لاينز؛ فإن هذا المنهج يعد أداة فعالة للكشف عن البنية العميقة لمعجم أي نص وكيف ينظم تجربتنا للعالم (انظر أولمان، ١٩٦٢/١٩٧٥، ص ١٩٧-٢٠٣؛ لاينز، ١٩٧٧/٢٠٠٠، ص ٨٣).

وتتلخص الخطوات الإجرائية لهذا المنهج في البحث الحالي بالآتي:

- قراءة استكشافية متكررة للنص لتحديد التيمات المهيمنة والاستراتيجيات الكبرى (نزع القداسة، التطبيع، الإغواء).

- استقصاء وحصر المفردات والتراكيب المرتبطة بهذه التيمات.

- تصنيفها في حقول دلالية فرعية.

- تحليل كيف تسهم هذه الحقول في بناء المنظومة العدمية للرواية، وتجدر الإشارة إلى أن المنهج المتبع هنا هو «كيفي-تأويلي»، يركز على «الكثافة الدلالية» و«الوظيفة الاستراتيجية» للمفردات وليس مجرد الإحصاء الكمي.

١-٣- الذات المأزومة وهندسة العدمية:

إن تركيز هذه الدراسة على «المعجم» هو مدخل لفهم ظاهرتين محوريتين تتقاطعان في سياق ما بعد الحداثة، وهما: الذات المأزومة، والعدمية السردية.

١-٣-١ **الذات المأزومة**: في سياق «دراسات الصدمة»، ترى كاثي كاروث أن الصدمة بوصفها «جرحًا للعقل»، هي بالأحرى خرقٌ في تجربة العقل للزمن، والذات، والعالم؛ إنها حدثٌ يُعاش في وقت مبكر جدًّا، وبشكل غير متوقع جدًّا، لدرجة لا يمكن معها معرفته بالكامل، ومن ثم، فإن طبيعته غير المستوعَبة هي التي تعود لتطارد الناجي لاحقًا، إنها ليست مجرد علّة، بل هي قصة جرح يصرخ، ويخاطبنا في محاولة لإخبارنا عن حقيقة غير متاحة بطريقة أخرى، هذه الحقيقة، في ظهورها المتأخر ومخاطبتها المتأخرة، تطرح مشكلة مركزية في المعرفة والتمثيل، وتتحدث بلغةٍ «تتحدى فهمنا» حتى وهي تطالب بشهادتنا (Caruth, 1996, pp. 4–7)، وهنا تكمن أهمية تحليل المعجم؛ فالكلمات المكررة والمحصورة تصبح بمنزلة الأعراض اللغوية لهذه الصدمة، هذه الذات المعرَّفة بما تفقده وبما يؤلمها، تقترب مما تصفه جوليا كريستيفا بتجربة (النبذ)؛ إنه عذاب تعيشه (لا-ذات) في فضاء ينهار فيه الفصل بين الداخل والخارج، وفي هذا «المستوى من السقوط» الذي يعادل الموت، تتشكل هوية هذه الذات المنبوذة على حدود اللغة (Kristeva, 1982, p. 25)، وفي هذا السياق، يشير دومينيك لاكابرا أيضا إلى أن تمثيل الذاكرة المأزومة يكمن في توتر أساسي بين نمطين: فمن جهة، يوجد «الاستغراق» في الماضي، وهو «تكرار قهري لمشاهد صادمة» تنهار فيه الحدود بين الماضي والحاضر، ومن جهة أخرى، توجد محاولة التجاوز والمعالجة، التي هي ممارسة نطقية تسعى جاهدة للتمييز بين الماضي والحاضر، ومواجهة قوة ذلك التكرار، وما يزيد هذه الإشكالية تعقيدًا -كما يوضح لاكابرا- هو أن الذات قد تقاوم التجاوز بدافع ما أسماه «الوفاء للصدمة، هو شعور سوداوي بأن التجاوز والعودة للحياة يُعد بمنزلة خيانة لأولئك الذين استهلكهم ذلك الماضي الصادم، مما يُبقي الذات في حالة حِداد سوداوي مستحيل (انظر LaCapra, 2001, pp. 21–23)، وبناء على كل هذا الذي ذكرناه تبرز أهمية ما سنقوم بتحليله في علاقة الشخصيات بذاكرتها ولغتها.

١-٣-٢ **العدمية السردية**: لا تكتفي الدراسة بتحليل الذات المأزومة، بل تنتقل لتحليل كيف أن هذه الأزمة تتحول إلى «عدمية»، سواء كانت «عدمية وجودية»، أو «عدمية أخلاقية» ويُعرَّف مفهوم العدمية في هذه الدراسة تعريفًا فلسفيًّا دقيقًا يتجاوز المعنى الشائع لليأس أو السلبية، إنه يشير -كما حدده نيتشه- إلى عملية «انحطاط القيم العليا» واللحظة التي يصبح فيها سؤال «لماذا؟» بلا إجابة (نيتشه، ٢٠١١، ص ١٣).

٢- استراتيجيات التشكيل اللغوي للعالم العدمي في بريد الليل:

يجدر بنا أن ننبه هنا إلى أن العدمية في «بريد الليل» ليست مجرد موضوع فلسفي، بل هي بنية لغوية يتم هندستها عبر المعجم السردي، ومن ثم ينطلق هذا القسم التطبيقي من الفرضية المركزية للدراسة، وهي أن المعجم السردي في «بريد الليل» هو الأداة الفنية التي يتم من خلالها بناء «منظومة قيمية عدمية» متكاملة، لا تكتفي الرواية بوصف عالم مأزوم، بل تقوم بهندسة هذا العالم لغويًا عبر استراتيجيات دقيقة ومترابطة تهدف إلى تفكيك أي أساس قيمي يمكن للذات أو القارئ الاستناد إليه، وقد كشف الاستقصاء الشامل للنص عن هيمنة ثلاث استراتيجيات لغوية كبرى، سيتم تحليلها تباعًا: استراتيجية «نزع القداسة»، واستراتيجية «تطبيع الانتهاك»، واستراتيجية «إغواء التعاطف».

٢-١- استراتيجية «نزع القداسة» وتفكيك المرجعيات:

تمثل استراتيجية «نزع القداسة» الحجر الأساس في بناء العالم العدمي للرواية، وهي بمنزلة عملية «الهدم التأسيسي» التي تسبق كل شيء، وتتقاطع هذه الاستراتيجية جوهريًّا مع ما وصفه جان فرانسوا ليوتار بـ«الوضع ما بعد الحداثي»، الذي يُعرّفه -بتبسيط شديد- بأنه حالة من التشكك إزاء الميتا-حكايات (السرديات الكبرى)؛ مما يعني انهيار قدرتها على إضفاء المشروعية والمعنى على الوجود الإنساني، ولا يتعلق الأمر هنا بمجرد «فقدان» عفوي للروابط، بل بعملية تفكك ممنهجة تفقد فيها الوظيفة الحكائية عناصرها الأساسية -كالبطل العظيم والهدف العظيم-وتتبعثر في سحب من العناصر اللغوية -بتعبير ليوتار- (ليوتار، ١٩٧٩/١٩٩٤، ص ص ٢٣-٢٤)، هذا التفكك يؤدي إلى تفريغ المرجعيات الإنسانية الأساسية (الأسرة، الوطن، الذاكرة) من أي قيمة موحِّدة أو قدسية؛ فيكون الأثر الأخلاقي -لهذه الاستراتيجية- المدعوم بفقدان مشروعية السرديات الكبرى، هو خلق «فراغ قيمي» جذري؛ حيث إن مفهوم «المقدس»، كما يحلله ميرسيا إلياد، هو ما يمنح الوجود معناه، وينظمه في مقابل فوضى العالم «المدنس» أو المحايد (إلياد، ١٩٥٧/١٩٨٨، ص ص ٢٥-٣٠).

٢-١-١ تخريب النواة الأولى: معجم تفكيك الروابط الأسرية:

أ. المعطيات المعجمية:

مفردات الانتماء (المُفرَّغة)	أمي/أم، أبي/أب، أخي/أخوها، ابنتي/البنت، يتامى/يتيم، زوجها، أهلي/أهلنا.
تراكيب النبذ والقطيعة	نشأت بلا أهل، ضاع أبي، رمتني داخله، نسيتها فورًا، قذفتني ككيس القمامة، أنا قتيلة أمي، ليس للبنت أب.
مفردات الهوية السلبية (نتيجة الفقد)	وحيد، قاتلة، ضحية، قتيلة، خادمة، مومس، صعلوك، أعور، مدمن، مشبوه.

ب. التحليل النقدي والأثر القيمي:

إن أولى عمليات «نزع القداسة» تتم في الحقل الدلالي الأكثر حساسية: الأسرة، يقوم المعجم السردي بعملية تخريب دلالي ممنهجة لرموز الانتماء الأولية.

يتجلى هذا التخريب بأوضح صوره في رمز «الأم»، فبدلًا من أن تكون الكلمة مرساة للأمان؛ فإنها تُحوَّل لغويًّا إلى المصدر الأول للصدمة والنبذ، فنرى أن كاتب الرسالة الأولى يؤسس هويته على فعل الطرد الأولي (بركات، ٢٠١٧، ص ٩)، والذي يصل إلى مستوى العنف الرمزي الصادم في قوله: «أنا قذفتني أمي في قطار الأرياف ككيس القمامة» (بركات، ٢٠١٧، ص ١٩).

إن اختيار فعل «قذف» العنيف، والتشبيه الصريح بـ «القمامة»، هو جوهر استراتيجية نزع القداسة هنا، هذا التشكيل اللغوي يقترب مما تسميه جوليا كريستيفا بـ «الدناسة»؛ حيث يصبح الكيان الأمومي الذي يفترض أن يكون مصدر الهوية والاستقرار، هو نفسه مصدر الرعب والنبذ الذي يجب على الذات أن تنفصل عنه وتنبذه بعنف لتأسيس

حدودها، وهو ما يجعل هذا الانفصال مأزومًا (Kristeva, 1982, p. 13)، إن الأثر الأخلاقي لهذا التشكيل هو تدمير الثقة الأولية في العلاقات الإنسانية.

وتكتمل صورة الأم كرمز للخذلان الأخلاقي عبر صوت كاتبة الرسالة الرابعة، التي تكشف عن تحول الأمومة إلى تجارة: «رحت أسأل أمي لماذا باعت البنت...» (بركات، ٢٠١٧، ص ٨٠).

وبالمثل، يخضع رمز «الأب» لتفكيك مماثل، حيث يتم تجريده من أية دلالات إيجابية، ففي الرواية، لا يُشحن هذا الرمز إلا بدلالة العنف السلطوي المباشر: «ضرب أبي المتكرر، بالحزام الجلدي أو بالعصا» (بركات، ٢٠١٧، ص ٥٢)، أو بالغياب العبثي: «ضاع أبي منّي، سقط كأن سهوًا» (بركات، ٢٠١٧، ص ١٣)، ونلاحظ أن عبارة «كأن سهوًا» الواردة في نص الرواية هنا تنزع عن (الفقد) -الذي يكون عادة مأساة للفاقد- معناه المأساوي، فلا يكون لحدوثه أي تأثير في نفس الفاقد، وهذه صورة من صور التجريد والتخريب الدلالي أيضا.

وتكتمل هذه الشبكة بتخريب الروابط الأخوية، التي تُعرَّف بالخيانة المطلقة: «سرقتني أختي...» (بركات، ٢٠١٧، ص ١١٣)، وتصل إلى ذروة الانهيار الأخلاقي حين تتحول العلاقة إلى مشروع انتقام دموي: «سوف أذبحها لحظة أجدها» (بركات، ٢٠١٧، ص ١١٤).

إن النتيجة المباشرة لهذا الانهيار المعجمي للجذور الأسرية هي انهيار (الذات)، وصولًا إلى النفي المطلق للوجود: «أنا لست أحدًا» (بركات، ٢٠١٧، ص ١١١)، وفي غياب أية هوية إيجابية، وغياب ملحوظ لأي حقل دلالي مضاد يشير إلى التضامن أو الحب العائلي؛ يقوم المعجم بـ (إعادة تشكيل) هذه الذات المفرغة عبر وصمات مهينة تمنحها هوية سلبية: «مشبوه»، «مدمن»، «مومس»، «خادمة»، «قاتلة».

٢-١-٢ محو الأصل: معجم تفكيك الوطن والمكان:

أ. المعطيات المعجمية:

مفردات المحو والكارثة	**السد (كمحو للقرية)، الحرب، مناطق مدمرة، أرض ملعونة.**
تراكيب الفقد العنيف	**غابت المحطة ورائي، شردتني، البلاد التي انقضت، وقعت وتشظت، بلادي في نار الحروب.**
مفردات اللاانتماء	**المنفى، المهجر، غرباء، بلا أوراق، غير مرغوب فيه.**

ب. التحليل النقدي والأثر القيمي:

تتوازى استراتيجية نزع القداسة عن الروابط الأسرية مع استراتيجية مماثلة تستهدف المرجعية المكانية: (الوطن، والبيت)؛ حيث يقوم المعجم السردي بعملية محو لغوي ممنهج للمكان المعبر عن المنشأ، تبدأ هذه الاستراتيجية بالمحو الكامل للجغرافيا الحاضنة، فيتجسد ذلك في الصورة الصادمة التي يقدمها كاتب الرسالة الأولى: «القرية بكاملها أصبحت تحت الماء حين انهار السد عليها» (بركات، ٢٠١٧، ص ٩)، هذه الصورة هي فعل لغوي يمحو نقطة البداية، فالماء هنا لا يغرق مكانًا جغرافيًّا فحسب، بل يُغرق ما يسميه غاستون باشلار «الكون الأول» للإنسان، ذلك الحيز الذي يمثل «البيت الأول» ومركزًا لتكثيف الذكريات ومصدراً للأمان الوجودي؛ حيث الحياة تبدأ فيه بداية جيدة، ومسيجة، ومحمية دافئة (باشلار، ١٩٨٤، ص ص ٣٦-٣٨)؛ وبانهيار السد، يتم إغراق هذا الركن الآمن في عالم كاتب الرسالة، ومحوه بالكامل.

ويتكرر هذا المحو على نطاق أوسع في خطاب الكاتبة الثانية؛ حيث يُستخدم معجم العنف الشديد لوصف الوطن كما في قولها: «البلاد التي انقضت، وقعت وتشظت كآنية كبيرة من زجاج» (بركات، ٢٠١٧، ص ٤١).

وبعد محو الأصل، يقوم المعجم بتشكيل هوية قائمة على النفي والطرد؛ فالشخصيات تُعرَّف بالخروج القسري، باستخدام مفردات مثل: «المنفى» و»المهجر» كما في العبارتين: «... يهنئنا على إقامتنا بالمنفى» و»...ونروح نردد، بمرارة، عزاء

واحدنا للآخر بأنها شروط العيش في المهجر... وبأننا يتامى بلداننا» (بركات، ٢٠١٧، ص ٢٥)، كما تظهر استحالة العودة إلى الوطن بما يُمكِّن لقطيعة معه في العبارة الرمزية «غابت المحطة ورائي» (بركات، ٢٠١٧، ص ١٢)، إن تجربة المنفى هنا هي حالة وجودية من الانقطاع التام عن الجذور، وهي -كما يصفها إدوارد سعيد- «شرخ مفروض لا التئام له بين كائن بشري ومكانه الأصلي، بين الذات وموطنها الحقيقي» (سعيد، ٢٠٠٠/٢٠٠٧، ص ١١٧).

ويمتد هذا الفقد ليشمل الهوية القانونية، وهو ما يتجلى في تكرار تركيب «بلا أوراق» (بركات، ٢٠١٧، ص ٢٨)، ويُتوّج بصفة «غير مرغوب فيه» (بركات، ٢٠١٧، ص ٢٨).

وأخيرًا، يؤكد المعجم السردي أن هذا الفقد نهائي، وتأتي الشهادة القاطعة على هذا المحو النهائي من البوسطجي (كاتب الخاتمة)، في سؤاله الوجودي: «حين تختفي العناوين تماما في المناطق المدمرة... إلى من يكتب الواحد؟!» (بركات، ٢٠١٧، ص ١٢٥)، فيؤكد الانهيار الكامل للبنية الجغرافية والاجتماعية.

٢-١-٣ إلغاء الاستمرارية: معجم تفكيك الذاكرة والزمن:

أ. المعطيات المعجمية:

مفردات الذاكرة (المشكوك بها):	**الماضي، الذاكرة، ذكرياتي، الحنين.**
تراكيب النسيان والمحو:	**لم أعد أذكر، قليل ما أذكره، نسيتها فورًا، أنا نفسي نسيته، من يمحو؟، بلا فائدة.**
تراكيب التشويه والاختراع:	**يأتي كالكوابيس، مثير للتقزز، أضيع بين ذكرياتي واختراعاتي، غير مستقر، من يخترع؟**
تراكيب الزمن المعطل (الانتظار):	**سنوات طويلة، بعد كل هذه السنين، لن تأتي، وأنا هنا أنتظر، أنسى من أنتظر، لأملأ انتظاري.**

ب. التحليل النقدي والأثر القيمي:

بعد تفكيك المرجعيات الأسرية والمكانية، تتجه استراتيجية «نزع القداسة» إلى بعد آخر: الزمن والذاكرة؛ حيث يقوم المعجم السردي هنا بتفكيك علاقة الذات بماضيها ومستقبلها، مما يلغي أي إمكانية لتشكيل «هوية سردية» متماسكة.

تتشكل العلاقة بالماضي عبر (معجم النسيان والذاكرة المعطوبة)، والذاكرة هنا ليست مصدرًا للهوية، بل هي حقل ألغام مشوه ومؤلم، يتجلى هذا في خطاب كاتب الرسالة الأولى الذي تبدأ علاقته بالذاكرة من خلال النفي: «لم أعد أذكر» (بركات، ٢٠١٧، ص ٩)، وهذا النسيان هو آلية دفاعية لمواجهة ماضٍ صادم، كما جاء في عبارة: «قليل ما أذكره... وهو مثير للتقزز، حتَّى حين يأتي في المنامات يكون كالكوابيس» (بركات، ٢٠١٧، ص ١٤)، وعندما يقوم الكاتب بفعل محو ذاتي كما في قوله: «انسي ما كتبت لأني أنا نفسي نسيته» (بركات، ٢٠١٧، ص ٢٨)؛ فإن الأثر الأخلاقي هو أن الذات تفقد الثقة في سجلها التاريخي الخاص.

وتأخذ هذه الذاكرة المتأزمة شكلًا آخر عند كاتبة الرسالة الثانية، حيث تتحول إلى (فراغ وشك)، فعندما تتحدث عن ماضيها وما تعرفه عنه تقول إنه: «قليل جدًّا، وعتيق، وغير مستقر» في ذهنها (بركات، ٢٠١٧، ص ٣٥)، وتصل إلى ذروة الشك العدمي في وجود الذاكرة نفسها حين تسأل: «هل أنت من يخترع؟ أم أنا من يمحو؟» (بركات، ٢٠١٧، ص ٤٢).

وفي هذا السياق، يتم تفريغ مفردة «الحنين» من كل دلالاتها الإيجابية، فتقول الكاتبة الثانية بحدة: «لا في طفولتي ولا في شبابي ما يستدعي ذلك الحنين الذي يشبه السجن» (بركات، ٢٠١٧، ص ٤١)، إن تشبيه «الحنين» بـ «السجن» هو فعل لغوي عنيف يغير دلالة كلمة الحنين بالكامل من دلالة إيجابية فيها شوق إلى ماضٍ، إلى دلالة سلبية تقوم على النفور والرغبة في الفكاك من الأسر/السجن.

وإذا كانت علاقة الذات بالماضي هي علاقة محو وشك؛ فإن علاقتها بالمستقبل تتشكل عبر (معجم الزمن المُعطَّل) الذي يتجلى في حالة (الانتظار) العبثي، فالزمن هنا لا يتدفق نحو هدف، بل هو زمن متجمد ومكرر، فتصبح حالة الانتظار هي الهوية الكاملة للكاتبة الثانية، حين تقول: «كنت أكتب إليك لأملأ انتظاري» (بركات، ٢٠١٧، ص ٣٤)، إنها تعيش في حالة انتظار خالص ومجرد من أي هدف، وهي تدرك عبثيته،

وذلك في قولها: «أردّد أنك مستحيل أن تأتي، مع أني هنا أنتظر.» (بركات، ٢٠١٧، ص ٣٦).

هكذا، يتضح أن استراتيجية «نزع القداسة» هي عملية شاملة وممنهجة، إن التفاعل بين الحقول الدلالية الثلاثة (الأسرة، الوطن، الذاكرة) ينتج أثرًا تراكميًّا مدمرًا، إن هذا «الهدم التأسيسي» يخلق ذاتًا بلا جذور وبلا تاريخ، ويهيئها ويهيئ القارئ لتقبل الانهيار الأخلاقي كحالة وحيدة ممكنة للوجود، مما يمهد الطريق للاستراتيجية التالية وهي: تطبيع هذا الانهيار.

٢-٢ استراتيجية «تطبيع الانتهاك» وبلاغة الحياد:

إذا كانت استراتيجية «نزع القداسة» قد أفرغت العالم من المرجعيات والقيم الإيجابية؛ فإن استراتيجية «تطبيع الانتهاك» هي الخطوة التالية في هندسة العالم العدمي؛ حيث يعتمد التطبيع هنا على «بلاغة الحياد»، وهي استراتيجية فنيّة تصف الأحداث الصادمة بلغة باردة، أو غير مبالية، أو حتمية، مما يُضعف من قدرة القارئ على الإدانة الأخلاقية، بل يضعف إرادته لها كذلك.

٢-٢-١ الجسد المُجرَّد: تطبيع الألم وتشويه الرغبة:

أ. المعطيات المعجمية:

معجم الألم والتحلل الجسدي	**آلام في ركبتي/ظهري، انقطع طمثي، تراص الفقرات، سقطت أسناني، الصلع، مريض في جسمي ومريض في روحي، ديدان الجثث، فساد اللحم، ممددة كالخشبة.**
معجم النفور الحسي	**رائحة البيض النتنة، الروث الموحل، العمش اللاصق، أتكهرب، كأن أفعى قد لسعتني، قرفًا وكرهًا لكل جسمها.**

معجم الرغبة المشوهة (الحيوانية/التجارية)	**أشتم رقبتك، كصغار الحيوان، أضعك بين ذراعي رجل آخر، أشتغل مومسًا، التعاطي مع الرجال الزبائن، اغتصابا صريحًا وهمجيًّا.**

ب. التحليل النقدي والأثر القيمي:

إن أولى خطوات تطبيع الانتهاك تبدأ من الجسد، فلا يتعامل المعجم السردي مع الجسد ككيان إنساني مقدس، بل يحوله بشكل منهجي إلى مجرد مادة خاضعة للألم والتحلل والتشوه، هذه النظرة المادية للجسد هي آلية لتجريده من إنسانيته.

تبدأ هذه الاستراتيجية عبر هيمنة معجم الألم والعجز الجسدي، فيتم تطبيع المعاناة من خلال لغة تشريحية دقيقة ومحايدة تصف عملية الشيخوخة والانهيار، فالكاتبة الثانية تفصِّل حالتها بلغة طبية باردة: «أقصر طولا» و«منحنية الآن قليلا» بسبب «تراص الفقرات الأخيرة» (بركات، ٢٠١٧، ص ٤٦)، و«انقطع طمثي» (بركات، ٢٠١٧، ص ٣٧)، هذا الحياد الأسلوبي في وصف الألم يجعله يبدو كمعطى طبيعي، ويصل هذا التجريد إلى ذروته في معجم التحلل الصريح الذي يستدعيه كاتب الرسالة الثالثة: «ديدان الجثث»، و«فساد اللحم» (بركات، ٢٠١٧، ص ٦٩)، ويكتمل في وصف ضحيته بأنها «ممددة كالخشبة» (بركات، ٢٠١٧، ص ٧٠).

وبالتوازي مع تطبيع الألم، يقوم المعجم بتشويه الرغبة والتواصل الجسدي، فيُنْزعُ عن (الاشتهاء) معنى التواصل، ويُحصَر في خانة الحيوانية أو التجارة، ويتجلى هذا في خطاب كاتب الرسالة الأولى الذي يستخدم لغة حيوانية بدائية: «أشتم رقبتك كصغار الحيوان» (بركات، ٢٠١٧، ص ١٤).

وتأخذ الرغبة شكلًا آخر في خطاب الأخت (كاتبة الرسالة الرابعة)؛ حيث تتحول إلى فعل تجاري ضمن وصف الجسد بالسلعة، من خلال العبارات التي تستخدمها مثل: «التعاطي مع الرجال الزبائن» (بركات، ٢٠١٧، ص ٧٨) فتحول الجنس إلى «تعاطٍ» مهني، فهذا التعبير عن الجسد على أنه مجرد (شيء) من خلال تحويله إلى سلعة ذات قيمة تبادلية؛ يلغي أية إمكانية لعلاقة أخلاقية قائمة على الاعتراف المتبادل بالإنسانية بين الطرفين.

وفي المقابل، تؤسس الرواية لمعجم قوي للنفور الجسدي، فالكاتبة الثانية ترى في اللمسة العابرة اعتداءً قاتلًا حينما تقول: «كأنَّ أفعى قد لسعتني» (بركات، ٢٠١٧، ص ٣٥)، ويتجلى هذا النفور كـ «قرف» صريح عند كاتب الرسالة الثالثة تجاه المرأة التي آوته: «ازددت قرفًا وكرها لكل جسمها» (بركات، ٢٠١٧، ص ٦٥).

٢-٢-٢ تطبيع العنف: بلاغة الحياد والاحتراف الإجرامي:

أ. المعطيات المعجمية:

معجم العنف المباشر:	**الضرب، القتل، اغتصبني، خنقتها، سوف أذبحها، التعذيب، يبولون علي ويتغوطون، يستعملون القناني أو الهراوات.**
معجم التراتبية والخضوع:	**الريّس، أسيادي، رؤسائي، من مرتبتهم فوق مرتبتي، الأوامر، مطيع.**
المعجم البيروقراطي/ المهني للعنف:	**أساليب التحقيق، عملاء، المعتقلين، مقراتنا، ضع عليه رقمًا وألقه بعيدًا، قضية حشيش، التحقيق، التهمة، زنزانة.**

ب. التحليل النقدي والأثر القيمي:

ينتقل النص من تطبيع الألم الجسدي إلى المرحلة الأكثر خطورة: تطبيع العنف الممنهج والجريمة، هنا تتجلى «بلاغة الحياد» في أوضح صورها؛ حيث تُستخدم اللغة لنزع الإنسانية عن الضحايا وتحويل العنف إلى مجرد إجراء روتيني أو مهني.

يبدأ النص بتأسيس العنف كقاعدة وليس استثناء، فمثلا يروي كاتب الرسالة الثالثة تجربته في السجن بلغة تكشف عن عنف عبثي يهدف إلى الإذلال المطلق، فالعبارة التي جاءت على لسانه: «بدأوا بالضرب من دون أسئلة» (بركات، ٢٠١٧، ص ٥٤) تؤسس لعنف لا يسعى للاعتراف، بل لمحو الإنسانية، وتصل هذه الاستراتيجية

إلى ذروتها في استعمال كلمات دالة على «الإذلال بالقذارة»، كما في قوله: «كانوا يبولون عليّ ويتغوّطون أيضًا» (بركات، ٢٠١٧، ص ٥٥)، هذا الفعل، المروي بنبرة تقريرية خالية من الصدمة، يهدف إلى إعادة تعريف الذات كـ(قذارة)، ويتكرر هذا مع (العنف الجنسي) الممنهج؛ حيث يتم التفصيل في ذكر الأدوات المستعملة في ذلك: «يستعملون القناني أو الهراوات» (بركات، ٢٠١٧، ص ٥٥).

لكن الأثر الأخلاقي الأخطر هو (تطبيع تحول الذات من ضحية إلى جلاد)، هذا التحول لا يُقدم كأزمة أخلاقية، بل كمسار طبيعي للانتماء إلى منظومة السلطة، يتبنى الكاتب الثالث معجم التراتبية والخضوع المطلق: «أسيادي»، «رؤسائي» (بركات، ٢٠١٧، ص ٥٦)، ويعلن المتكلم عن دستوره الوجودي الجديد: «أنا مطيع لمن مرتبتهم فوق مرتبتي» (بركات، ٢٠١٧، ص ٥٧)، هذه الجملة هي شهادة على إلغاء الإرادة الفردية والمسئولية الأخلاقية، وتجدر الإشارة هنا إلى الغياب التام لأي معجم مضاد، مثل مفردات المقاومة أو الشعور بالذنب.

ويتم هذا التطبيع بشكل حاسم عبر تبني المعجم «المهني» للعنف، فالتعذيب يُشار إليه بالمصطلح التقني «أساليب التحقيق» (بركات، ٢٠١٧، ص ٥٧)، والضحايا يتم تصنيفهم ضمن فئات أمنية تجرّدهم من إنسانيتهم: «المعتقلين»، و «العملاء» (بركات، ٢٠١٧، ص ٥٧).

ويصل هذا التجريد إلى ذروته في اللغة الإدارية التي يوصف بها القتل: «طارت الهراوة من ظهره إلى رأسه فأعطاكم عمره، قال الريس: ضع عليه رقمًا وألقه بعيدًا» (بركات، ٢٠١٧، ص ٥٧)، فالقتل هنا هو مجرد حادث عمل، والجثة هي مجرد رقم، هذه اللغة الإدارية هي الأداة الأكثر فعالية لتطبيع الوحشية، وهي ما يجسد ما يصفه زيجمونت باومان بأن العنف الحديث يتميز بقدرته على إنتاج «مسافة أخلاقية» بين الفاعل وفعله عبر البيروقراطية واللغة التقنية، مما يجعل الفظائع ممكنة (باومان، ١٩٨٩/٢٠١٣، ص ص ١٨٤-١٨٥).

وتكتمل عملية التطبيع حين يصف الكاتب هذا العالم بتعبير صادم: «عالمي، عالمي السفليّ هذا كان يحفظني كرحم كبير ودافئ» (بركات، ٢٠١٧، ص ٥٦)، إن تشبيه عالم العنف والقتل بـ(الرحم الدافئ) هو أقوى استعارة في النص على عملية الانقلاب القيمي الكامل.

٢-٢-٣ إلغاء المسئولية: معجم التبرير الديني والقدري:

أ. المعطيات المعجمية:

معجم الإله الغائب/المتواطئ:	**الله غائب عن هذا العالم السفلي، ترك لنا القيادة، له في ذلك حكمة، هو المخطط لكل شيء، مدني بهذه القوة.**
معجم القدرية والجبرية:	**القدر، مصير، قصاص، قضاءً وقدرًا لا مردّ لهما، هذا قضاؤه، هكذا تقرر الحياة، أقدارنا مرسومة لنا منذ اللحظة الأولى.**

ب. التحليل النقدي والأثر القيمي:

بعد تطبيع الانتهاك على المستويين الجسدي والبيروقراطي، نصل إلى المستوى الأعمق: التطبيع الأيديولوجي عبر استخدام المعجم الديني والغيبي، هنا يُستخدم المعجم الديني كأداة لغوية لبناء «لاهوت خاص» يبرر العنف ويلغي المسئولية الأخلاقية الفردية.

وهنا تتجلى استراتيجيتان؛ الأولى (تحييد السلطة الأخلاقية للإله)، فمثلا يعلن كاتب الرسالة الثالثة عن لاهوته الخاص الذي يسمح له بارتكاب جرائمه: «فهمت، بصورة نهائية، أنَّ الله غائب عن هذا العالم السفلي، وأنه ترك لنا القيادة» (بركات، ٢٠١٧، ص ٥٧)؛ فتكشف هذه العبارة عن تصور يُسقِط المرجعية القيمية المتعالية، ويحوّل الفعل الإنساني إلى ممارسة تستمد مشروعيتها من الذات، لا من معيار خارجي ضابط.

ويتقاطع هذا التصور - على مستوى الدلالة العامة - مع ما تُشير إليه بعض الطروحات الفلسفية الحديثة من أنّ انهيار الإطار الأخلاقي الأعلى يجعل العالم «بلا مدلول»، وأن الحكم القيمي يتحول إلى منظور نسبي يخضع لتقدير الفاعل (انظر على سبيل المثال: نيتشه، ٢٠١١، ص ص ٢٠–٢٤)، وبذلك تصبح الجريمة في هذا السياق

نتيجةً لحالة وعي مُعاد تشكيلها، لا ترى في الغياب الإلهي عائقًا، بل مدخلاً لإعادة تعريف القيمة انطلاقًا من المصلحة الذاتية وحدها.

ثم ينتقل من فكرة الغياب إلى فكرة التواطؤ، فينسب أفعاله إلى مشيئة إلهية: «له في ذلك حكمة... وهو من مدني بهذه القوة التي غدت جبروتًا لأنه هو المخطط لكل شيء» (بركات، ٢٠١٧، ص ٥٧)، هنا يتم استخدام اللغة الدينية بشكل مشوه تمامًا؛ فالذات تجعل الإله شريكًا في الجريمة.

وأما الاستراتيجية الثانية وهي المكملة للأولى؛ فهي (تطبيع الجريمة عبر القدرية)؛ حيث يؤسس المعجم السردي لهوية ذاتية محكومة بالجبرية والمصير المحتوم، فمثلا يتبنى كاتب الرسالة الثالثة هذا المنطق ليرفع عن نفسه المسئولية الأخلاقية، فيرى أن التعذيب والموت هما «قضاءً وقدرًا لا مردّ لهما» (بركات، ٢٠١٧، ص ٧٠).

وتتبنى الأخت (كاتبة الرسالة الرابعة) نفس المنطق لتبرير أفعالها الإجرامية، فتقول عن موت ضحاياها: «هذه إرادة الخالق وهذا قضاؤه، لماذا لا أرضى بقضائه حين يعطف علي قليلا؟» (بركات، ٢٠١٧، ص ٨٢)، هنا يصل الانقلاب القيمي إلى ذروته؛ فالجريمة تبدو كـ «عطف» إلهي، وتستخدم عبارة «هكذا تقرر الحياة» (بركات، ٢٠١٧، ص ٨٣) كحتمية مطلقة، هذا التبني للجبرية هو ما يسميه جان بول سارتر «سوء النية» وهو حالة يتهرب فيها الإنسان من حريته ومسئوليته عبر الادعاء بأنه محكوم بظروف خارجية أو طبيعة ثابتة (سارتر، ١٩٤٣/١٩٦٦، ص ص ٦، ١١١-١٢٢).

وتصل هذه الرؤية الجبرية إلى ذروتها في خطاب الابن الخنثى الذي يرى أن الأقدار «مرسومةً لنا... منذ اللحظة الأولى» (بركات، ٢٠١٧، ص ٨٧).

هكذا، يتضح أن استراتيجية «تطبيع الانتهاك» هي عملية متعددة الطبقات، فبعد أن قامت استراتيجية «نزع القداسة» بتأسيس الفراغ القيمي، تأتي هذه الاستراتيجية لملء هذا الفراغ بقيم مضادة والعمل على أن يتقبلها القارئ ويألفها، مما يمهد للاستراتيجية الأخيرة التي تهدف إلى توريط القارئ في هذا البناء.

٢-٣ استراتيجية «إغواء التعاطف» وتوريط القارئ:

تعد استراتيجية «إغواء التعاطف» الذروة الفنية والأخلاقية في بناء العالم العدمي للرواية، وهي الاستراتيجية التي تستهدف القارئ مباشرة، تأتي هذه الاستراتيجية لضمان ألا يبقى القارئ مجرد مراقب خارجي لهذا الانهيار، بل أن يتورط فيه عاطفيًّا وذهنيًّا.

تعتمد هذه الاستراتيجية بشكل أساسي على البنية الفنية للرواية: الشكل الرسائلي وهيمنة ضمير المتكلم (الأنا)؛ فهذه البنية تجبر القارئ على التماهي مع وعي الشخصيات وتبنّي منظورها الداخلي، إن هذا الإجبار على تبنّي «وجهة نظر» الشخصية يندرج تحت مصطلح جيرار جينيت»التبئير الداخلي»؛ حيث يُقيَّد السرد بمجال معرفة شخصية واحدة (جينيت، ١٩٧٢/١٩٩٧، ص ص ٢٠٠-٢٠٢)، وفي سياق هذه الرواية تحديدًا، يؤدّي هذا النمط من التبئير إلى تقليص المسافة النقدية بين القارئ والشخصية، بحيث يُوضع القارئ في موقع الشريك أو المتلقي للاعتراف.

٢-٣-١ الوجود في «اللامكان»: بلاغة العبور وتكثيف العزلة:

أ. المعطيات المعجمية:

فضاءات العبور	**القطار، النفق، المحطة، المطار، الشارع.**
فضاءات الاحتجاز المؤقت	**الفندق، الغرفة، الجُحر، غرفة مفروشة، غرفة بائسة، السجن، الزنزانة.**
تراكيب النفي المكاني	**اخرج من بيتي، باعت البيت، لن أعود إلى بيتي، مستحيل، أسميها بيتًا (بشكل ساخر).**

ب. التحليل النقدي والأثر القيمي:

إن أول آلية لتوريط القارئ وإغوائه للتعاطف هنا هي عزل الشخصيات عن أي سياق اجتماعي أو مكاني مستقر؛ حيث يقوم المعجم السردي بهندسة عالم تهيمن عليه

فضاءات العبور والاحتجاز المؤقت، مما يشكل وجودًا في حالة دائمة من «اللامكان».

تتجلى هذه الاستراتيجية في الهيمنة المطلقة لفضاءات العبور، فيظهر «القطار» كفضاء تأسيسي للطرد والنفي (بركات، ٢٠١٧، ص ٩)، ويتحول إلى «نفق طويل، لا ينتهي» (بركات، ٢٠١٧، ص ١٠)، ويتطور هذا الفضاء ليصبح «المطار»، وهو «اللامكان» النموذجي، كبرزخ للانتظار العبثي (بركات، ٢٠١٧، ص ٥٠) وفضاء للضياع والانهيار (بركات، ٢٠١٧، ص ١٠٣)، إن هذه الفضاءات، كما يحللها مارك أوجيه (أوجيه، ١٩٩٢/٢٠١٢، ص ص ٩٠-٩٥)، هي أماكن لا تاريخ لها ولا هوية ولا علاقات اجتماعية، إنها تنتج العزلة وتجعل الفرد مجردًا من أي سياق.

وعندما لا تكون الذات في حالة حركة؛ فإنها تصل إلى فضاء مغلق ومؤقت، مثل «الغرفة» و«الفندق»، هذه الفضاءات محايدة وفارغة من المعنى، كما تصف الكاتبة الثانية (بركات، ٢٠١٧، ص ٣١)، ويصل هذا التفريغ الدلالي إلى ذروته حين يستخدم كاتب الرسالة الأولى مفردة «الجُحر» لوصف غرفته (بركات، ٢٠١٧، ص ١٦).

ويقوم المعجم السردي بتوجيه الضربة القاضية لمفهوم الاستقرار عبر استراتيجية (نفي البيت)، يتم تجريد مفردة «البيت» من دلالاتها الإيجابية، وتُستخدم بشكل ساخر لوصف «غرفة بائسة» (بركات، ٢٠١٧، ص ١٦)، أو كمسرح للطرد: «اخرج من بيتي» (بركات، ٢٠١٧، ص ٥٦)، وصولًا إلى إعلان الاستحالة النهائية للعودة: «لن أعود إلى بيتي، مستحيل» (بركات، ٢٠١٧، ص ٤٨).

ما هو الأثر الأخلاقي لهذا التشكيل المكاني؟ إن حصر الشخصيات في هذه «اللاأماكن» يعزلها تمامًا عن أي نظام أخلاقي خارجي، في هذا الفراغ، تصبح لغة الشخصية واعترافاتها هي الحقيقة الوحيدة المتاحة، هذا العزل المكثف يولد لدى القارئ شعورًا بالشفقة، وهذه الشفقة هي المدخل الأول لـ «إغواء التعاطف».

٢-٣-٢ إغواء الاعتراف: الكتابة كفعل وجود وحيد:

أ. المعطيات المعجمية:

أدوات الكتابة	**الرسائل/رسالة، ورق، سطور.**
فعل السرد	**أكتب، الكلام، الحكاية، الاعترافات، صوت.**
تراكيب الوظيفة الوجودية للكتابة	**رسالة وهمية، أقلبها في رأسي، أعبئ السطور، كنت أكتب إليك لأملأ انتظاري، اختراع الكلام، أكلم الأشباح.**

ب. التحليل النقدي والأثر القيمي:

في ظل الانهيار الكامل للمرجعيات والعزلة المكانية، لم يتبق للشخصيات سوى «اللغة» كفضاء أخير للوجود، هنا تكمن الآلية المركزية للإغواء الأخلاقي، والتي تتم عبر تحويل فعل الكتابة إلى فعل وجود وحيد، واستخدام صيغة الاعتراف لتوريط القارئ.

إن بنية الرواية القائمة على رسائل «مقطوعة» أو «لم تصل» تضع القارئ، رمزيًّا، في موقع المتلقي لهذه الرسائل، هذا الموقع يفرض على القارئ الدخول في علاقة مباشرة ومتماسة مع الكاتبين، إن هيمنة ضمير المتكلم («الأنا») في كل الرسائل تلغي أي وسيط سردي وتجبر القارئ على الاستماع مباشرة إلى الصوت الداخلي للشخصيات.

وهنا تكمن خطورة «إغواء الاعتراف»، فالاعتراف، تاريخيًّا، هو آلية لإنتاج الحقيقة وطلب الغفران أو التفهم، وكما يرى ميشيل فوكو؛ فإن الاعتراف هو طقس خطابي ننتج فيه حقيقة عن أنفسنا، ولكنه يضع المعترف في علاقة قوة مع من يستمع إليه؛ ذلك الذي يمتلك سلطة الحكم أو الغفران (فوكو، ١٩٧٦/٢٠٠٤، ص ص ٥٠-٥١)، وفي «بريد الليل»؛ فإن القارئ هو من يُعْتَرَفُ له.

إن كاتبي هذه الرسائل -كما في رسالة الشاب إلى أمه (الرسالة الثالثة)، ورسالة الأخت إلى أخيها (الرسالة الرابعة)، ورسالة الابن إلى أبيه (الرسالة الخامسة)- يعترفون بجرائم صريحة أو بأفعال تُفضي إلى الموت، من تعذيب وقتل، إلى ترك الأمّ أو الحبيب يموتان، ثم يحاولون جميعًا إعادة تأطير هذه الأفعال عبر الاعتراف الموجَّه إلى أمٍّ أو أبٍ أو أخ، بما يحوِّل القارئ – الذي يطّلع على هذه الاعترافات – إلى بديل رمزي لصاحب السلطة على الغفران، وهم بذلك يطلبون من القارئ أن يكون شاهدًا على وجودهم، هذا الطلب يولد التزامًا أخلاقيًّا بالاستماع، وعندما يعترفون بجرائمهم؛ فإن صيغة الاعتراف بضمير المتكلم تخفف من وطأة الفعل عبر تقديمه من منظور صاحبه، مبررًا أو متألمًا.

إن هذا التوريط العاطفي هو ما يقصده وين بوث عندما يتحدث عن «الرفقة» التي نفرضها على أنفسنا أثناء القراءة (انظر Booth, ١٩٨٨, p. ١٠)، فالرواية «تغوينا» للدخول في رفقة شخصيات مدمرة أخلاقيًّا، وبفضل البراعة الفنية والعمق النفسي الذي تقدم به هذه الشخصيات؛ يصبح من الصعب على القارئ ممارسة إدانة أخلاقية صارمة.

٢-٣-٣ فخ الموثوقية: معجم الكذب والتلاعب:

أ. المعطيات المعجمية:

مفردات الخداع:	**كذب، نميمة.**
تراكيب التلاعب والإخفاء:	**أتملص من اعتراف، كذبي المكشوف، تلفيقي السافر، الغواية الذكورية.**
تراكيب المحو الذاتي:	**انسي ما كتبت، أنا نفسي نسيته، هو الكوكايين.**

ب. التحليل النقدي والأثر القيمي:

إذا كان الاعتراف هو آلية الإغواء الأولى، فإن الآلية الأكثر تعقيدًا وخطورة هي

وعي النص بذاته وقدرته على التلاعب والخداع، هنا، يتم التركيز على معجم الخداع، وتحديدًا مفردة «الكذب»، هذا الحقل يكشف كيف تستخدم الذات اللغة بوعي، ليس كمرآة للحقيقة، بل كقناع وأداة للتزييف، مما يضع القارئ في «فخ الموثوقية».

يكشف كاتب الرسالة الأولى عن أن الكذب هو استراتيجية وجودية، فيعترف بالوظيفة الدقيقة للكذب: «إما أني أكذب لأتملص من اعتراف بأمر حميم...» (بركات، ٢٠١٧، ص ١٤)، ويعترف بأن هويته المقدمة للآخرين هي بناء لغوي مصطنع: «وسَيَلي ذلك كذبي المكشوف وتلفيقي السافر» (بركات، ٢٠١٧، ص ٢٠).

ما الأثر الأخلاقي لهذا الاعتراف بالكذب؟ بشكل متناقض، قد يؤدي هذا إلى زيادة التورط بدلًا من التحرر، فعندما يعترف السارد بأنه غير موثوق به؛ فإنه يتحدى القارئ ليكتشف الحقيقة، ولكن بما أن عالم الرواية بأكمله لا يوجد إلا داخل هذه الرسائل الكاذبة، فلا توجد حقيقة خارجية يمكن للقارئ الوصول إليها، فالقارئ محاصر داخل التلفيق.

وتصل هذه الاستراتيجية إلى ذروتها في نهاية رسالة الكاتب الأول؛ حيث يقوم بفعل (محو ذاتي لغوي)، فبعد أن أغوى القارئ بالتعاطف معه عبر سرده المؤلم؛ يقوم بهدم كل شيء في جملة واحدة: «انسي ما كتبته في هذه الرسالة... انسي ما كتبت لأني أنا نفسي نسيته... هو الكوكايين» (بركات، ٢٠١٧، ص ٢٨).

هذا هو الفخ الأخلاقي النهائي، الرواية تبني عالمًا عدميًّا متكاملًا، وتغوي القارئ بالتعاطف مع مهندسي هذا العالم، ثم تسحب البساط من تحت قدمي القارئ بالتشكيك في صدق كل ما قيل، فالنتيجة هي حالة من الارتباك القيمي العميق والعجز عن الوصول إلى أي يقين أخلاقي أو حقيقي.

٣- الأثر القيمي: «العجز الأخلاقي» وجماليات العدمية:

لقد أثبت التحليل المفصل في القسم السابق أن رواية «بريد الليل» تقوم بهندسة عالم عدمي متكامل عبر استراتيجيات لغوية ممنهجة (نزع القداسة، تطبيع الانتهاك، إغواء التعاطف)، ويناقش هذا القسم الأخير كيف أن هذا البناء يؤدي إلى حالة يمكن وصفها بـ «العجز الأخلاقي» لدى القارئ، وكيف أن البنية الفنية للرواية هي نفسها

مكمن إشكاليتها القيمية.

٣-١ صناعة «العجز الأخلاقي»:

ترى هذه الدراسة أن الأثر القيمي الأبرز لرواية «بريد الليل» هو صناعة حالة من «العجز الأخلاقي» لدى القارئ، ولا يُقصد بهذا المصطلح أن القارئ يفقد قيَمَه الخاصة، بل أنه يجد نفسه عاجزًا عن ممارسة «الحكم الأخلاقي» داخل عالم النص، ويخرج من تجربة القراءة بإحساس عميق بالارتباك القيمي واللاجدوى، ويتحقق هذا العجز عبر عدة آليات متضافرة كما يلي:

أولًا: الإغلاق الدلالي والمنظومة العدمية المغلقة؛ فلقد كشف تحليل الحقول الدلالية عن شبكة معجمية مغلقة ومترابطة بإحكام، لا تترك أية ثغرة تتسرب منها قيمة إيجابية، وقد تجلى هذا بوضوح في الغياب شبه الكامل لأي حقول دلالية مضادة (مثل معجم التضامن، الأمل، المقاومة الأخلاقية)، فعندما يتم تفريغ كل رمز (الأم، الأب، الوطن، الدين، الحب، الذاكرة) من قيمته؛ لا يتبقى للقارئ أية أرضية قيمية صلبة يقف عليها ليصدر حكمًا، إن العالم السردي لا يقدم أي بديل أخلاقي.

ثانيًا: إلغاء المسافة النقدية، كما أوضح تحليل استراتيجية «إغواء التعاطف»، فإن البنية الرسائلية وهيمنة ضمير المتكلم تجبر القارئ على التماهي مع وعي الشخصيات المدمرة، هذا التماهي يجعل من الصعب على القارئ الحفاظ على مسافة نقدية تسمح له بالإدانة، فيعظُم التعاطف ليحل محل الحكم الأخلاقي، وعندما يتعاطف القارئ مع الجلاد لأنه ضحية أيضًا؛ فإن الحدود بين المسئولية الأخلاقية والجبرية الوجودية تنهار تمامًا.

ثالثًا: التشكيك في الحقيقة والمصداقية؛ فوعي النص بذاته واستخدامه لمعجم الكذب والتلفيق والمحو الذاتي كما في نهاية الرسالة الأولى، (بركات، ٢٠١٧، ص ٢٨)، يضع القارئ في حالة من عدم اليقين الجذري، إن التشكيك في الحقيقة يؤدي مباشرة إلى التشكيك في القيمة.

إن النتيجة النهائية هي حالة من الشلل الأخلاقي، فالرواية تفكك المنظومات القائمة ولا تعيد بناء أي بديل، إنها تضع القارئ في مواجهة العدمية الصافية، وتتركه في حالة فراغ قيمي.

٣-٢- جماليات العدمية وإشكالية «الواقعية»:

هنا نصل إلى جوهر الإشكالية النقدية والأخلاقية، إن رواية «بريد الليل» تمثل إنجازًا فنيًّا في قدرتها على بناء عالم عدمي متكامل لغويًا ونفسيًّا، ولكن من منظور النقد الأخلاقي؛ فإن هذه البنية الفنية هي تحديدًا ما يجعل الرواية إشكالية.

إن تأثير النص لا يكمن فقط في محتواه العدمي، بل في «جماليته»، إن الرواية مكتوبة بلغة شعرية مكثفة، وصور صادمة ومبتكرة (مثل تشبيه عالم الجريمة بالرحم الدافئ، بركات، ٢٠١٧، ص ٥٧)، هذه البنية الفنية تقوم بعملية «تجميل لليأس»، إنها تضفي جاذبية فنية وعمقًا فلسفيًّا على الانهيار الأخلاقي واللامعنى.

هذا التجميل للعدمية يعزز من تأثيرها؛ لأنه يجعلها تبدو كحقيقة وجودية عميقة، إن العلاقة بين الجمالي والأخلاقي علاقة معقدة، فالفن يحمل في طياته إمكانية نقد الواقع القائم، ولكن هناك خطر دائم من أن يتحول هذا النقد إلى مجرد استهلاك جمالي لهذا الواقع المحتاج إلى نقد، مما يفرغ هذا الفن من قوته التغييرية أو حتى النقدية، وفي «بريد الليل»، يبدو أن الجماليات تخدم ترسيخ العدمية بدلًا من مساءلتها.

وهنا يجب تناول الحجة التي قد تدافع عن الرواية بوصفها «واقعية»، تعكس قسوة الحرب والمنفى، فالنقد الأخلاقي لا ينكر واقعية الأحداث المرويّة، ولكنه يؤمن بأن الأدب ليس مجرد مرآة للواقع، بل هو عملية «تشكيل» و«تأطير» لهذا الواقع.

إن «واقعية» «بريد الليل» هي واقعية انتقائية تركز حصريًّا على الانهيار والتشوه، وتغفل بشكل شبه كامل أية إمكانية للمقاومة أو التضامن الإنساني أو البحث عن المعنى، هذا الاختيار الفني هو موقف أيديولوجي وقيمي، إن الإصرار على أن هذا هو «الواقع» الوحيد الممكن هو بحد ذاته فعل عدمي يسهم في ترسيخ اليأس وإلغاء إمكانية التغيير، وهو ما يتعارض مع رؤى أخرى ترى أن الفن حتى في مواجهة العبث يجب أن يكون شكلًا من أشكال التمرد والبحث عن المعنى (كامو، ١٩٥١/١٩٨٣، ص ٣١٤).

ومن ثم فإن الأثر القيمي للرواية لا يكمن في وصفها للواقع، بل في الطريقة التي تقنعنا بها، عبر جمالياتها، بأن هذا الواقع العدمي هو الحقيقة النهائية والوحيدة للوجود الإنساني.

الخاتمة:

لقد انطلقت هذه الدراسة من فرضية محورية تسعى إلى تحليل الدور التأسيسي للغة في بناء الواقع السردي لرواية «بريد الليل» لهدى بركات، ومساءلة الأثر القيمي والأخلاقي لهذا البناء، ولتحقيق هذا الهدف، تبنت الدراسة منهجًا متكاملًا يجمع بين دقة الأدوات اللسانية (نظرية الحقول الدلالية) وعمق الإطار التأويلي (النقد الأدبي الأخلاقي).

وقد كشف التحليل التطبيقي المعمق للمعجم السردي عن أن الرواية تقوم بهندسة «منظومة قيمية عدمية» متكاملة عبر ثلاث استراتيجيات لغوية كبرى ومترابطة عملت بشكل منهجي على تفكيك البنية الأخلاقية للعالم السردي وتوريط القارئ فيها:

أولًا، استراتيجية «نزع القداسة»، التي قامت بعملية هدم تأسيسي لكل المرجعيات الإنسانية الأساسية (الأسرة، الوطن، الذاكرة، الدين)، مؤسسة لفراغ قيمي جذري.

ثانيًا، استراتيجية «تطبيع الانتهاك»، التي استخدمت «بلاغة الحياد» والمعاجم البيروقراطية والدينية لتفريغ العنف والجريمة من محتواهما الأخلاقي، وتحويلهما إلى أفعال روتينية أو حتمية، مما يلغي المسئولية الفردية.

وثالثًا، استراتيجية «إغواء التعاطف»، التي استغلت البنية الرسائلية وهيمنة ضمير المتكلم لعزل القارئ داخل وعي الشخصيات المدمرة، وإجباره على التماهي مع منظورها عبر «فخ الاعتراف» والتلاعب بالمصداقية.

إن النتيجة التراكمية لهذه الاستراتيجيات هي ما أسمته الدراسة بـ «العجز الأخلاقي» في التلقي، فالقارئ يجد نفسه محاصرًا داخل عالم مغلق، عاجزًا عن ممارسة الحكم الأخلاقي بسبب إلغاء المسافة النقدية وانهيار المعايير القيمية داخل النص.

وتخلص الدراسة إلى نتيجة مركزية مفادها أن رواية «بريد الليل» تمثل نموذجًا لـ «جماليات العدمية»، إنها تقدم تشكيلًا لغويًا متماسكًا للذات المأزومة، ولكن، من منظور النقد الأخلاقي، فإن هذا البناء الفني نفسه هو مصدر إشكاليتها القيمية العميقة، فالرواية، عبر استراتيجياتها اللغوية، تقوم بـ «تجميل اليأس» وتضفي جاذبية فنية على اللامعنى، مما يساهم في ترسيخ الرؤية العدمية كحقيقة وجودية نهائية.

وتدرك هذه الدراسة حدودها البحثية، فقد اقتصر التطبيق على نص روائي واحد، مما قد يحد من إمكانية تعميم النتائج، كما ركز التحليل بشكل أساسي على المستوى المعجمي (الحقول الدلالية)، دون التوسع في تحليل جوانب بنائية أو أسلوبية أخرى قد تساهم أيضًا في تشكيل الأثر الأخلاقي.

وبناءً على هذه النتائج والحدود، تقترح الدراسة مسارات بحثية مستقبلية، أهمها: تطبيق هذا المنهج اللغوي-الأخلاقي المزدوج على مدونات سردية أخرى تتناول تيمات الأزمة والصدمة لمقارنة الاستراتيجيات اللغوية المتبعة، كما تدعو الدراسة إلى إجراء بحوث مقارنة حول تمثيلات العدمية في السرد العربي وغيره من الآداب العالمية، وإلى تطوير أدوات النقد الأخلاقي في السياق النقدي العربي.

إن هذه الدراسة لا تدعو إلى فرض رقابة على الإبداع أو العودة إلى أدب ملتزم بمعايير أخلاقية خارجية، بل هي دعوة إلى ممارسة «قراءة واعية أخلاقيًّا»؛ قراءة تقدر البناء الفني للنص، ولكنها تظل يقظة تجاه الاستراتيجيات البلاغية واللغوية التي يستخدمها للتأثير على منظومتنا القيمية وتشكيل رؤيتنا للعالم.

قائمة المصادر والمراجع

١. إلياد، مرسيا. (١٩٨٨). المقدس والمدنس (عبد الهادي عباس، مترجم). دار دمشق. (العمل الأصلي نُشر عام ١٩٥٧).

٢. أوجيه، مارك. (٢٠١٢). اللاماكن: مدخل إلى أنثروبولوجيا الحداثة المفرطة (خالد التومي، مترجم). أفريقيا الشرق. (العمل الأصلي نُشر عام ١٩٩٢).

٣. أولمان، ستيفن. (١٩٧٥). دور الكلمة في اللغة (كمال بشر، مترجم) (ط. ١). دار الشباب. (العمل الأصلي نُشر عام ١٩٦٢).

٤. باشلار، غاستون. (١٩٨٤). جماليات المكان (غالب هلسا، مترجم) (ط. ٢). المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. (العمل الأصلي نُشر عام ١٩٥٨).

٥. باومان، زيجمونت. (٢٠١٣). الحداثة والهولوكوست (حجاج أبو جبر، مترجم). مدارات للأبحاث والنشر. (العمل الأصلي نُشر عام ١٩٨٩).

٦. بختين، ميخائيل. (١٩٨٧). الكلمة في الرواية (يوسف حلاق، مترجم). منشورات وزارة الثقافة. (العمل الأصلي نُشر عام ١٩٧٥).

٧. بركات، هدى. (٢٠١٧). بريد الليل. دار الآداب.

٨. جينيت، جيرار. (١٩٩٧). خطاب الحكاية: بحث في المنهج (محمد معتصم وآخرون، مترجمون) (ط. ٢). المجلس الأعلى للثقافة. (العمل الأصلي نُشر عام ١٩٧٢).

٩. دي سوسير، ف. (١٩٨٥). علم اللغة العام (ص. القرمادي، م. الشاوش، وم. عجينة، مترجمون). الدار العربية للكتاب. (العمل الأصلي نُشر عام ١٩١٦).

١٠. سارتر، جان بول. (١٩٦٦). الوجود والعدم: بحث في الأنطولوجيا الفنومينولوجية (عبد الرحمن بدوي، مترجم) (ط. ١). دار الآداب. (العمل الأصلي نُشر عام ١٩٤٣).

١١. سعيد، إدوارد. (٢٠٠٧). تأملات حول المنفى ومقالات أخرى (ثائر ديب، مترجم). دار الآداب. (العمل الأصلي نُشر عام ٢٠٠٠).

١٢. شرف الدين، فضل. (٢٠١٩). «بريد الليل»: متاهة الرسائل والبحث عن المعنى. مجلة فصول، ٢٥(٤)، ١١٢–١٣٠.

١٣. فوكو، ميشيل. (٢٠٠٤). تاريخ الجنسانية ١: إرادة العرفان (محمد هشام، مترجم). أفريقيا الشرق. (العمل الأصلي نُشر عام ١٩٧٦).

١٤. كامو، ألبير. (١٩٨٣). الإنسان المتمرد (نهاد رضا، مترجم). منشورات عويدات. (العمل الأصلي نُشر عام ١٩٥١).

١٥. لاينز، جون. (٢٠٠٠). اللغة والمعنى والسياق (عباس صادق الوهاب، مترجم). دار الشؤون الثقافية العامة. (العمل الأصلي نُشر عام ١٩٧٧).

١٦. ليوتار، جان فرانسوا. (١٩٩٤). الوضع ما بعد الحداثي: تقرير عن المعرفة (أحمد حسان، مترجم). دار شرقيات. (العمل الأصلي نُشر عام ١٩٧٩).

١٧. نيتشه، فريدريك. (٢٠١١). إرادة القوة (محمد الناجي، مترجم). أفريقيا الشرق. (العمل الأصلي نُشر بعد وفاة المؤلف).

١٨. ياغي، عبد الرحمن. (٢٠١٨). تجليات الصدمة والذاكرة في رواية «بريد الليل». المجلة الأردنية للغات الحديثة وآدابها، ١٤(٢)، ٤٥–٦٠.

19. Booth, W. C. (1988). The company we keep: An ethics of fiction. University of California Press.

20. Caruth, C. (1996). Unclaimed experience: Trauma, narrative, and history. Johns Hopkins University Press.

21. Kristeva, J. (1982). Powers of horror: An essay on abjection (L. S. Roudiez, Trans.). Columbia University Press. (Original work published 1980).

22. LaCapra, D. (2001). Writing history, writing trauma. Johns Hopkins University Press.

23. Meretoja, H. (2018). The ethics of storytelling: Narrative hermeneutics, history, and the possible. Oxford University Press.

24. Phelan, J. (2005). Narrative as rhetoric: Technique, audiences, ethics, ideology. The Ohio State University Press.

25. Rorty, R. (Ed.). (1992). The linguistic turn: Essays in philosophical method (2nd ed.). The University of Chicago Press. (Original work published 1967).

26. Trier, J. (1931). Der deutsche Wortschatz im Sinnbezirk des Verstandes: Von den Anfängen bis zum Beginn des 13. Jahrhunderts. Winte.